

يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت
الحكمة فقد أتى خيراً كثيراً وما
يذكر إلا أوامر الآيات

المعاني

١٣١٥

فبشر عباده الذين يستمعون القول
فيؤمنون أحسنه أولئك الذين هداهم
الله وأولئك هم أولو الآيات

(قال عليه الصلاة والسلام: ان الاسلام صوى و « مناراً » كمنار الطريق)

(مصر في يوم الجمعة ١٦ جمادى الثانية سنة ١٣٢٠ - ١٩ ستمبر (ايلول) سنة ١٩٠٢)

— الاسلام والنصرانية . مع العلم والمدنية —

وهو المقال الثالث لذلك الامام الحكيم . والاستاذ العليم

طبيعة الاسلام مع العلم بحكم أصوله

(تمهيد الاصل الاول) للاسلام في الحقيقة دعوتان -- دعوة الى الاعتقاد

بوجود الله وتوحيده ودعوة الى التصديق برسالة محمد صلى الله عليه وسلم .
فأما الدعوة الاولى فلم يعول فيها الا على تنبيه العقل البشري وتوجيهه الى
النظر في الكون واستعمال القياس الصحيح والرجوع الى ما حواه الكون
من النظام والترتيب وتماقد الاسباب والمسببات ليصل بذلك الى أن
للكون صانعاً واجب الوجود عالماً حكماً قادراً وان ذلك الصانع واحد
لوحدة النظام في الاكوان . وأطلق للعقل البشري ان يجري في سبيله
الذي سنته له الفطرة بدون تقييد فنهيه الى أن خلق السموات والأرض
واختلاف الليل والنهار وتحريك الرياح على وجه يتيسر للبشر أن يستعملها

في تسخير الفلك لمنافعه وإرسال تلك الرياح لتثير السحاب فينزل من السحاب ماء فتحي به الأرض بعد موتها وتنبت ماشاء الله من النبات والشجر مما فيه رزق الحي وحفاظ حياته - كل من آيات الله عليه أن يتدبر فيها ليصل منها الى معرفته

ثم قد يزيد تنبيهاً بذكر أصل للكون يمكن الوصول الى شيء منه بالبحث في عوالمه فيذكر ما كان عليه الأمر في أول خلقه السموات والأرض كما جاء في آية: «أولم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقنهما وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون» ونحوها من الآيات . وهو إطلاق لعنان العقل ليجري شوطه الذي قدر له في طريق الوصول الى ما كانت عليه الأكوان . وقد يزيد التنبيه تأثيراً في إيقاظ العقل ما يؤيد ذلك من السنة كما جاء في خبر من سأل النبي صلى الله عليه وآله : أين كان ربنا قبل السموات والأرض فاجابه عليه السلام : « كان في عمام تحته هواء »^(١) والعماء عندهم السحاب . فترى القرآن في مثل هذه المسألة الكبرى لا يقيد العقل بكتاب ، ولا يقف به عند باب ، ولا يطالبه فيه بحساب ؛ فليقرأ القارئ القرآن يعني عن سرد الآيات الداعية الى النظر في آيات الكون - « أولم ينظروا في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء » . « وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبا فمنه يأكلون » - « ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف السنتكم واللوانكم » وأمثال ذلك ، فلوأردت سرد جميعها لأتيت

(١) رواه ابن جرير والطبراني وابو الشيخ في العظمة عن أبي رزين السائل (رض)

بأكثر من ثلث القرآن بل من نصفه في مقالي هذا .
 يذكر القرآن إجمالاً من آثار الله في الآكوان تحريكاتاً للعبارة ؛ وتذكيراً
 بالنعمة ؛ وحفظاً للفكرة ؛ لا تقريراً لقواعد الطبيعة ؛ ولا إزاماً باعتقاد
 خاص بالخلقة ؛ وهو في الاستدلال على التوحيد لم يفارق هذا السبيل ،
 انظر كيف يقرع بالدليل ، « لو كان فيها آلهة الا الله لفسدتا » « ما اتخذ الله
 من ولدٍ وما كان معه من إلهٍ إذا لذهب كل إله بما خلق ولعلنا بعضهم
 على بعضٍ سبحانه الله عما يصفون »

فالإسلام في هذه الدعوة والمطالبة بالإيمان بالله ووحدايته لا يعتمد
 على شيء سوى الدليل العقلي ؛ والفكر الإنساني الذي يجري على نظامه
 الفطري ، (وهو ماسميه بالنظام الطبيعي) فلا يدهشك بخارق للمادة ،
 ولا يفشي بصرك بأطوار غير معتادة ، ولا يخرس لسانك بقارعة سماوية ،
 ولا يقطع حركة فكرك بصيحة آلهية ، وقد اتفق المسلمون الا قليلاً ممن
 لا يعتد برأيه فيهم على ان الاعتقاد بالله مقدم على الاعتقاد بالنبوات وأنه
 لا يمكن الايمان بالرسول الا بعد الايمان بالله . فلا يصح ان يؤخذ الايمان
 بالله من كلام الرسل ولا من الكتب المنزلة ^(١) فانه لا يعقل ان تؤمن
 بكتاب أنزله الله الا اذا صدقت قبل ذلك بوجود الله وبأنه يجوز ان ينزل
 كتاباً أو يرسل رسولا .

وقالوا كذلك ان أول واجب يلزم المكلف أن يأتي به هو النظر

١٥ النار - أي لا يؤخذ منها بالتسليم بناءً على انها من الله ولا ينافي هذا أن يؤخذ
 الايمان بالله من كلام الرسل وكتبهم بما يقيمون من البرهان على ذلك لا بمجرد التسليم
 ولا باعتبار أنهم رسل الله ثم بعد الايمان بالله وبهم يكمل ايمانه بالأخذ عنهم

والفكر لتحصيل الاعتقاد بالله لينتقل منه الى تحصيل الايمان بالرسول
وما أنزل عليهم من الكتاب والحكمة

وأما الدعوة الثانية فهي التي يخرج بها الاسلام بخارق العادة وما أدراك

ماهو الخارق للعادة الذي يعتمد عليه الاسلام ، في دعوته الى التصديق

برسالة النبي عليه السلام ، هذا الخارق للعادة هو الذي تواتر خبره ، ولم

ينقطع أثره ، هذا هو الدليل وحده وما عداه مما ورد في الأخبار سواء

صح سندها او اشهر او ضعف أو وهي فليس مما يوجب القطع عند

المسلمين . فاذا أورد في مقام الاستدلال فهو على سبيل تقوية العند لمن

حصل أصله ، وفضل من التأكيد لمن سلمه من أهله . ذلك الخارق الذي تواتر

المعول عليه في الاستدلال لتحصيل اليقين هو القرآن وحده . والدليل

على انه معجزة خارقة للعادة تدل على ان موحيه هو الله وحده وليس من

اختراع البشر هو انه جاء على لسان أمي لم يتعلم الكتاب ولا يحارس العلوم

وقد نزل على وتيرة واحدة هادياً للضال مقوماً للمسرف كائناً بنظام عام

لحياة من يهتدي به من الأمم مشتدلاً لهم من خصم ان كذب فيه ومهلك

كانوا أشرفوا عليه . وهو مع ذلك من بلاغة الأساليب ما لا يرتقى

اليه كلام سواه حتى لقد دعي الفصحاء والبلغاء ان يعارضوه في ذلك . فمثله

فمجزوا وجأوا الى الحجارة بياسوف وسنك الله واضطرب المؤمنون به

الى ان الجأهم الى الدفاع عن منبرهم وكان من أمرهم ما كانت من انتهاء

الحق على الباطل وظهور شمس الاسلام تمتد ظلها بأضوائها ، وتفسر

أنوارها في جوائها ،

وهذا الخارق قد دعا الناس الى النظر فيه بمؤمنهم وطولبوا بان يأتيوا



في نظرهم على آخر ما انتهى اليه قوتهم فأبوا وجدوا طريقاً لا بطلان إعجازه
أو كونه لا يصلح دليلاً على المدعى فعملهم ان يأتيوا به . قال تعالى : « وإن
كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله » وقال : « أفلا
يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً »
وقال غير ذلك مما هو مطالبه بمقاومة الحججة بالحجة ولم يطالبهم بمجرد
التسليم على وغم من العقل

معجزة القرآن جامع من القول والعلم ، وكل منهما مما يتناوله العقل
بالفهم ، فهي معجزة عرضت على العقل وعرفته القاضي فيها وأطلقت له
حق النظر في أحنائها ، ونشر ما انطوى في أثنائها ، وله منها حظه الذي
لا ينتقض . فهي معجزة أعجزت كل طوق ان يأتي بمثلاً ، ولكنها دعت
كل قدرة ان تتناول ما نشأ منها ، أما معجزة موت حي بلا سبب
معروف للموت أو حياة ميت أو إخراج شيطان من جسم أو شفاء علة
من بدن فهي مما ينقطع عند العقل . ويجوز شيئاً منهم ، وإنما يأتي بها الله
على يد رسله لإسكات أقوام غلبهم الوهم ، ولم تضيء عقولهم بنور العلم ، وهكذا
يقيم الله بقدرته من الآيات ، للأمم على حسب الاستعدادات ،^(١)

ثم ان الاسلام لم يتخذ من خوارق العادات دليلاً على الحق لغير
الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ولم ترد فيه كلمة واحدة تشير الى ان الداعين
اليه يمكنهم ان يغيروا شيئاً من سنة الله في الخليقة ولا حاجة الى بيان ذلك
فهو أشهر من ان يحتاج الى تعريف

(١) راجع الصفحة ٣٧١ من مجلد المنار الرابع وانظر الكلام في الآيات الكونية

بالحجج الأصل الأول للإسلام النظر العقلي لتحصيل الإيمان

فأول أساس وضع عليه الإسلام هو النظر العقلي . والنظر عنده هو وسيلة الإيمان الصحيح فقد أقامك معه على سبيل الحجّة وقاضاك الى العقل ومن قاضاك الى حاكم فقد أذعن الى سلطته فكيف يمكنه بعد ذلك ان يجور أو يثور عليه .

بلغ هذا الأصل بالمسلمين أن قال قائلون من أهل السنة إن الذي يستقصي جهده في الوصول الى الحق ثم لم يصل اليه ومات طالباً غير واقف عند الظن فهو ناج . فأي سعة لا ينظر اليها الحرج أكل من هذه السعة

بالحجج الأصل الثاني للإسلام تقديم العقل على ظاهر الشرع عند التعارض

أسرع اليك بذكر أصل يتبع هذا الأصل المتقدم قبل أن أنتقل الى غيره : اتفق أهل الملة الاسلامية الا قليلا من لا ينظر اليه على انه اذا تمارض العقل والنقل أخذ بما دل عليه العقل وتقي في النقل طريقان طريق التسليم بصحة المنقول مع الاعتراف بالمعجز عن فهمه ، وتفويض الامر الى الله في علمه ، والطريق الثانية تأويل النقل مع المحافظة على قوتين اللغة حتى يتفق منها مع ما أثبتته العقل . وبهذا الأصل الذي قام على الكتاب وصحيح السنة وعمل النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم هدت بين يدي العقل كل سبيل ، وأزلت من سبيله جميع العقبات ، واتسع له المجال الى غير حد ، فإذا عساه يبلغ نظر الفيلسوف حتى يذهب الى ما هو أبعد من هذا ؛ وأي فضاء يسع أهل النظر وطلاب العلوم ان لم يسمهم هذا القضاء ؛ ان لم يكن في هذا متسع لهم فلا وسعهم أرض بجزالها ووهادها ، ولا سماه بأجرامها وأبعادها ،

﴿ أصل تلك من أصول الأحكام في الإسلام البعد عن التكفير ﴾
 هلاً ذهب من هذين الأصلين إلى ما اشتهر بين المسلمين وعرف
 من قواعد أحكام دينهم وهو : إذا صدر قول من قائل يحتمل الكفر من
 جهة وجه ويحتمل الإيمان من وجه واحد حمل على الإيمان ولا يجوز حمله
 على الكفر . فهل رأيت تسامحاً مع أقوال الفلاسفة والحكماء أوسع من
 هذا ؟ وهل يليق بالحكيم أن يكون من الحق بحيث يقول قولاً لا يحتمل
 الإيمان من وجه واحد من جهة وجه ؟ إذا بلغ به الحق هذا المبلغ كان
 الأجدر به أن يذوق حكم محكمة التفتيش البابوية ويؤخذ بيديه ورجليه
 فيلقى في النار .

﴿ أصل رابع في الإسلام الاعتبار بسنة الله في الخلق ﴾
 يتبع ذلك الأصل الأول في الاعتقاد - وهو أن لا يعول بعد الأنبياء
 في الدعوة إلى الحق على غير الدليل وأن لا ينظر إلى العجائب والغرائب
 وخوارق العادات - أصل آخر وضع لتقويم ملكات الأنفس القائمة على
 طريق الإسلام وإصلاح أعمالها في معاشها ومعادها . ذلك هو أصل العبادة
 بسنة الله فيمن مضى ومن حضر من البشر وفي آثار سيرهم فيهم . فما جاء
 في الكتاب العزيز مقروراً لهذا الأصل « قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا
 فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ - سَنَةٌ مِنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ
 مِنْ رُسُلِنَا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا - فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّةَ الْأُولَىٰ وَلَنْ تَجِدَ
 لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا - أُولَٰئِكَ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا
 كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ » الخ
 في هذا يصرح الكتاب بأن الله في الأمم والأحوال سناً لا يتبدل

والسنن الطرائق الثابتة التي تجري عليها الشؤون وعلى حسبها تكون الآثار وهي التي تسمى شرائع أو نوااميس ويغير عنها قوم بالقوانين ، مالمنا ولا اختلاف البارات ، الذي ينادي به الكتاب ان نظام الجحيم البشرية وما يحدث فيها هو نظام واحد لا يتغير ولا يتبدل ونبي من يطلب السعادة في هذا الاجتماع ان ينظر في أصول هذا النظام حتى يرد إليها أعماله ويبنى عليها سيرته وما يأخذ به نفسه ، فإن غفل عن ذلك غافل فلا ينتظرن الا الشقاء وان ارتفع الى الصالحين نسبه ، أو اتصل بالمقربين سببه ، فهما بحث الناظر وفكر ، وكشف وقرر ، وأتى لنا باحكام تلك السنن ، فهو يجري مع طبيعة الدين ، وطبيعة الدين لا تتجاني عنه ، ولا تنفر منه ، فلم لا يعظم تسامحها معه ؟

جاء الاسلام لمحو الوثنية العربية كانت أويونانية أو رومانية أو غيرها في أي لباس وجدت ، وفي أي صورة ظهرت ؛ وتحت أي اسم عرفت ؛ ولكن كتابه عربي والقرية لانه أولئك الوثنيين ، أعدائه الاقربين ، وفهم معناه ، وموقوف على معرفة اوضاع الاسان ولا تعرف أوضاعه حتى تعرف مواضع استعمال كله وأساليبه ، ولن يكون ذلك الا بحفظ ، والاطاق به العرب من منظوم ومثور وفيه من آدابهم وعاداتهم واعتقاداتهم ما يورد عند الناظر في كلامهم صورة كاملة من جاهليتهم وما فيها من الوثنية وأطوارها ، هكذا صنع المسلمون الأولون — ركبوا الاسفار ، وأنفقوا الامهار ، وبنوا الدرهم والدينار ، في جمع كلام العرب وحفظه وتدوينه وتفسيره توسلاً بذلك الى فهم كتابهم المنزل فكروا ان يكون ذلك ضرباً من ضروريات العبادة ، يرجون من الله فيه حسن المثوبة ، فكان من طبيعة الدين ان لا يحقر العلم للدين الذي ولد هو فيه . بل قد يكون من الدين علم ما ليس ، منه متى حسنت النية

في تناوله . وهذا باب من التسامح لا يقدر سمته الا أهل العلم به . أما المسيحيون الاولون فقد هجروا لسان المسيح عليه السلام سريانياً كان او عبرانياً وكتبوا الانجيل باللغة اليونانية ولم يكتب في العبرية الا انجيل متى فيما يقال . الاتري أن اسم الانجيل نفسه يوناني؟ كل ذلك كراهة لليهود الذين كان ينطق المسيح بلسانهم ويعظم بلغتهم . وتخرج من النظر في دواوين آدابهم ، وما توارثوا من عاداتهم

الأصل الرابع للاسلام قلب السلطة الدينية ﴿١﴾

أصل من أصول الاسلام انتقل اليه وما أجله من أصل - قلب السلطة الدينية والإتيان عليها من أساسها . هدم الاسلام بناء تلك السلطة ومحاثرها حتى لم يبق لها عند الجمهور من أهله أسم ولا رسم . لم يدع الاسلام لأحد بعد الله ورسوله سلطاناً على عقيدة أحد ولا سيطرة على إيمانه (علي ان الرسول عليه السلام كان مبلغاً ومذكراً لا مهيناً ومسيطرآ . قال تعالى « فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ») ولم يجعل لأحد من أهله أن يحل ولا أن يربط لافي الارض ولا في السماء . بل الايمان يعتق المؤمن من كل رقيب عليه فيما بينه وبين الله سوى الله وحده ، ويرفع عنه كل رقب الا العبودية لله وحده ، وايسلم معها علاكمه في الاسلام على آخر مهما انحطت منزلته فيه الا حق النصيحة والارشاد . قال تعالى في وصف الناجين : « وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ » وقال : « وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ

(١) هذا الأصل هو ضد الأصل الثاني من أصول النصرانية (راجع ص ٤١٤)

الْمُفْلِحُونَ» وقال : « فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة لينفقها في الدين
 ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون » فالسلمون يتناصحون ثم
 هم يقيمون أمة تدعو الى الخير وهم المراقبون عليها يردونها الى السبيل السوي
 اذا انحرقت عنه . وتلك الأمة ليس لها فيهم الا الدعوة والتذكير ، والانذار
 والتحذير ، ولا يجوز لها ولا لأحد من الناس أن يتبع عورة أحد . ولا يسوغ
 لقوي ولا لضعيف أن يتجسس على عقيدة أحد . وليس يجب على مسلم أن
 يأخذ عقيدته أو يتلقى أصول ما يعمل به عن أحد الا عن كتاب الله وسنة رسوله
 صلى الله عليه وسلم . لكل مسلم أن يفهم عن الله من كتاب الله وعن رسوله
 من كلام رسوله بدون توسيط أحد من سلف ولا خلف . وإنما يجب عليه
 قبل ذلك أن يحصل من وسائله ما يؤهله لفهم كتواعد اللغة العربية وآدابها
 وأساليبها وأحوال العرب خاصة في زمان البعثة وما كان الناس عليه زمن النبي
 صلى الله عليه وسلم وما وقع من الحوادث وقت نزول الوحي وشي من
 الناسخ والمنسوخ من الآثار . فان لم تسمح له حاله بالوصول الى ما يمدّه
 لفهم الصواب من السنة والكتاب فليس عليه إلا أن يسأل العارفين بهما .
 وله بل عليه أن يطالب المحيب بالدليل على ما يجيب به سواء كان السؤال في
 أمر الاعتقاد أو في حكم عمل من الاعمال . فليس في الاسلام ما يسمى عند
 قوم بالسلطة الدينية بوجه من الوجوه

السلطان في الاسلام

لكن الاسلام دين وشرع فقد وضع حدوداً ورسم حقوقاً . وليس
 كل منتهى في ظاهر أمره بحكم يجري عليه في عمله . فقد يئلب الهوى .
 وتحكم الشهوة . فينمط الحق . أو يتمدى المتعدي الحد . فلا تكمل الحكمة

من تشريع الاحكام الا اذا وجدت قوة لاقامة الحدود . وتنفيذ حكم القاضي بالحق . وصون نظام الجماعة . وتلك القوة لا يجوز ان تكون فوضى في عدد كثير فلا بد ان تكون في واحد وهو السلطان أو الخليفة

الخليفة عند المسلمين ليس بالمعصوم ، ولا هو مهبط الوحي ، ولا من حقه الاستئثار بتفسير الكتاب والسنة . ثم شرط فيه أن يكون مجتهداً أي أن يكون من العلم باللغة العربية وما معها مما تقدم ذكره بحيث يتيسر له ان يفهم من الكتاب والسنة ما يحتاج اليه من الاحكام حتى يتمكن بنفسه من التمييز بين الحق والباطل . والصحيح والفاسد . ويسهل عليه إقامة العدل الذي يطالبه به الدين والأمة معاً .

هو على هذا — لا يخصصه الدين في فهم الكتاب والعلم بالأحكام بمزية ، ولا يرتفع به الى منزلة ، بل هو وسائر طلاب الفهم سواء ، إنما يتفاضلون بصقل العقل ، وكثرة الاصابة في الحكم ،^(١) ثم هو مطاع مادام على المحجة ونهج الكتاب والسنة ، والمسلمون له بالمرصاد ، فاذا انحرف عن النهج أقاموه عليه ، واذا اعوج قواموه بالنصيحة والإعذار اليه ،^(٢) « لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق »^(٣) فاذا فارق الكتاب والسنة في عمله ، وجب عليهم ان يستبدلوا به غيره ، ما لم يكن في استبداله مفسدة تفوق المصلحة

(١) المنار — من شواهد ذلك ارتفاع قدر العلماء على الخلفاء الذين قصروا عنهم في الفهم والعلم . ألم يأتك نبأ الامام مالك مع الخليفة هرون الرشيد (رحمهما الله) وكيف أنزل الامام الخليفة عن المنصة وأقعده مع العامة عند القاء الدرس لأنه في رتبة المستفيد (٢) من شواهد ذلك قول الخليفة الأول رضى الله عنه في خطبة (وان زغت قوموني) راجع ٧٣٤ من مجلد المنار الرابع (٣) حديث رواه البخارى ومسلم وغيرهما (راجع ٧٣٢ من مجلد المنار الرابع)

فيه . (١) فالأمة أو نائب الأمة هو الذي ينسب إليه ، والأمة هي صاحبة الحق في السيطرة عليه ، وهي التي تخالعه متى رأت ذلك من مصلحتها ، فهو حاكم مدني من جميع الوجوه .

ولا يجوز لصحيح النظر أن يخلط الخليفة عند المسلمين بما يسميه الافرنج (تيوكراتيك) أي سلطان الهى . فان ذلك عندهم هو الذي ينفرد بتلقي الشريعة عن الله وله حق الأثرة بالتشريع ، وله في رقاب الناس حق الطاعة لا بالبيعة وما تقتضيه من المدل وحماية الحوزة بل بمقتضى الأيمان فليس للمؤمن مادام مؤمناً أن يخالفه وان اعتقد انه عدو لدين الله ، وشهدت عيناه من أعماله مالا ينطبق على ما يعرفه من شرائعه ، لأن عمل صاحب صاحب السلطان الديني وقوله في أي مظهر ظهر اهودين وشرع . هكذا كانت سلطة الكنيسة في القرون الوسطى . ولا تزال الكنيسة تدعي الحق في هذه السلطة الى اليوم كما سبقت الاشارة اليه

كان من أعمال التمدن الحديث الفصل بين السلطة الدينية والسلطة المدنية فترك للكنيسة حق السيطرة على الاعتقاد والأعمال فيما هو من معاملة العبد لربه . تشرع وتفسخ ما تشاء ، وتراقب وتحاسب كما تشاء ، وتحرم وتعطي كما تريد ، وخول السلطة المدنية حق التشريع في معاهدات الناس بعضهم لبعض . وحق السيطرة على ما يحفظ نظام اجتماعهم ، في معاشهم لان في معادهم ، وعدوا هذا الفصل منبعا للخير الأعم عندهم . ثم هم يهيمون فيما يرمون به الاسلام من انه يحتم قرن السلطين في شخص واحد .

(١) مثال ذلك ان يكون له عصبية أقوى من الأمة يخشى ان ييدها بها . دره

ويظنون ان معنى ذلك في رأي المسلم ان السلطان هو مقرر الدين وهو واضع أحكامه وهو منفذها والايمان آلة في يده يتصرف بها في القلوب بالإخضاع ، وفي العقول بالإقناع ، وما المقل والوجدان عنده الامتاع ، وينون على ذلك ان المسلم مستعبد لسلطانه بدينه . وقد عهدوا ان سلطان الدين عندهم كان يحارب العلم ، ويحمي حقيقة الجهل ، فلا يقيس للدين الاسلامي ان يأخذ بالتساعح مع العلم مادام من أصوله ان إقامة السلطان واجبة بمقتضى الدين . وقد تبين لك ان هذا كله خطأ محض وبُعد عن فهم معنى ذلك الأصل من أصول الاسلام . وعلمت ان ليس في الاسلام سلطة دينية سوى سلطة الموعظة الحسنة ، والدعوة الى الخير ، والتنفير عن الشر ، وهي سلطة خوفاً لله لا ذنبي المسلمين يقرع بها أنف اعلامهم ، كما خوفاً لاعلام يتناول بهامن أديانهم ، ومن هنا تعلم « الجامعة » ان مسألة السلطان في دين الاسلام ليست مما يضييق به صدره ، وتخرج به نفسه عن احتمال العلم ، وقد تقدم ما يشير الى ما صنع الخلفاء العباسيون والأمويون الأندلسيون من صنائع المعروف مع العلم والعلماء . وربما أتينا على شيء آخر منه فيما بعد يقولون : ان لم يكن للخليفة ذلك السلطان الديني أفلا يكون للمناضي أو المفتي أو شيخ الاسلام . وأقول : ان الاسلام لم يجعل لهؤلاء أدنى سلطة على العقائد وتقرير الأحكام . وكل سلطة تناولها واحد من هؤلاء فهي سلطة مدنية قررها الشرع الاسلامي . ولا يسوغ لواحد منهم ان يدعي حق السيطرة على إيمان أحد أو عبادته لربه أو ينازعه في طريق نظره

الأصل الخامس للاسلام حماية الدعوة لمنع الفتنة عن المسلمين

قالوا : إن الدين الاسلامي دين جهادي شرع فيه القتال ولم يكن

شرع في الدين المسيحي ففي طبيعة الدين روح الشدة على من يخالفه وائس
 فيها ذلك الصبر والاحتمال اللذان تقضي بهما شريعة المسالمة وهي الشريعة
 التي وردت في كثير من الوصايا المسيحية « من ضربك على خدك الايسر
 فادر له خدك الايمن من سخرك ميلا فسرعه ميلين » ونحو ذلك . حتى
 لقد طلبت فيها محبة الاعداء وإن كانت محبة العدو مما لا يدخل تحت
 الاختيار بل ولا محبة الصديق وإنما الاختياري العدل بين الاعداء والاولياء .
 لكن في ملكوت الله كل شيء مستطاع ولا شيء فيه بمستحيل . قلنا : لكن
 انظروا هل دفع الشر بالشر عند القدرة عليه وعند عدم التمكن من سواه
 خاص بالدين الاسلامي أو هو في طبيعة كل قادر يُعذِرُ الى خصمه ؟ . ليس
 القتل في طبيعة الاسلام بل في طبيعته العفو والمسامحة : « خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ
 بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ » ولكن القتال فيه لرد اعتداء المعتدين
 على الحق وأهله الى أن يأمن شرهم ويضمن السلامة من غوائلهم . ولم يكن
 ذلك للإكراه على الدين ولا للانتقام من مخالفيه . ولهذا لا تسع في تاريخ
 الفتوح الاسلامية ، ما تسمه في الحروب المسيحية ، عند ما اقتدر أصحاب
 « شريعة المسالمة » على محاربة غيرهم من قتل الشيوخ والنساء والاطفال .
 لم تقع حرب إسلامية بقصد الإيادة كما وقع كثير من الحروب بهذا
 القصد بأيدي المسيحيين . وإنما كان الصبر والمسالمة دينا عندما كانت القدرة
 والقوة تعوزان الدين . وغاية ما يقال إن العناية الاطية منحت الاسلام
 في الزمن القصير من القوة على مدافعة أعدائه ما لم تمنحه لغيره في الزمن
 الطويل . فتيسر له في شيبته ما لم يتيسر لغيره الا في كهولته أو شيخوخته .

مقابلة بين الاسلام الحربي والمسيحية السلمية

الاسلام الحربي كان يكتفي من الفتح بادخال الارض المفتوحة تحت سلطانه ثم يترك الناس وما كانوا عليه من الدين يؤدون ما يجب عليهم في اعتقادهم كما شاء ذلك الاعتقاد . وإنما يكلفهم بجزية يدفعونها لتكون عوناً على صيانتهم والحفاظة على أمنهم في ديارهم وهم في عقائدهم ومبادئهم وعاداتهم بعد ذلك أحرار لا يضاهقون في عمل ولا يضامون في معاملة . خلفاء المسلمين كانوا يوصون قوادهم باحترام المبادئ التي انقطعوا عن العامة في الصوامع والاديار لمجرد العبادة كما كانوا يوصونهم باحترام دماء النساء والاطفال ، وكل من لم يعن على القتال . جاءت السنة المتواترة بالنهي عن إيذاء أهل الذمة وبتقرير ما لهم من الحقوق على المسلمين (لهم مالنا وعليهم ما علينا) و (من آذى ذمياً فليس مناً) واستمر العمل على ذلك ما استمرت قوة الاسلام . ولست أبالي اذا انحرف بعض المسلمين عن هذه الاحكام ، عند ما بدأ الضعف في الاسلام ، - وضيق الصدر من طبع الضيف - فذلك مما لا يلصق بطبيعته ، ولا يخلط بطيبته ،

المسيحية السلمية كانت ترى لها حق القيام على كل دين يدخل تحت سلطتها ترأف أعمال أهله وتمنحهم دون الناس بضروب من المعاملة لا يمتثلها الصبر مما عظم . حتى اذا تمت لها القدرة على طردهم بعد العجز عن إخراجهم من دينهم وتعميدهم أجنتهم عن ديارهم ، وغسلت الديار من آثارهم ، كما حصل ويحصل في كل أرض استولت عليها أمة مسيحية استيلاء حقيقياً . لا يمنع غير المسيحي من تعدي المسيحي الا كثرة العدد ، أو شدة العصد ، كما شاهد التاريخ وكما يشهد كتابوه . ذلك كله لأنه ما جاء ليلقي

سلاماً بل سيفاً ولأنه جاء ليفرق بين البنت وأمها والابن وأبيه^(١) والاسلام يقول كتابه في شأن الوالدين : « وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبِهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنْابَ إِلَىَّ » فهو في اشتداده على المهتدين لأمنه لا يقضي بالفرقة بين أب وابن ولا بين أم وبنت . بل يأمر الأولاد المؤمنين ان يصحبوا آباءهم المشركين بالمعروف في الدنيا مع محافظتهم على دينهم

(١) تقدم نص الإنجيل متى في هذا . ومثله قول الإنجيل لوقا ١٥ - ٢٥ و ٢٦ (وقال لهم يسوع) ان كان احد يأتي اليّ ولا يبغض أباه وأمه وامرأته وأولاده واخوته واخواته حتى نفسه أيضاً فلا يقدر ان يكون لي تلميذاً) . وفي الباب ١٩ من هذا الإنجيل مانصه (٢٧) أما أعدائي أو لئك الذين لم يريدوا أن أملك عليهم تأتوا بهم الي هنا واذبحوهم قدامي) . وأما أسفار التوراة فقد جاء فيها نحو ذلك في القسوة مع الالهين الخائفين ومع سائر الحجارين . قال في ١٣ : ٦ - ٩ من تسمية الاشتراع (وإذا اغواك رآ أخوك ابن أمك أو ابنك أو ابنتك أو امرأة حزنك أو صاحبك الذي مثل نفسك قائلاً نذهب ونعبد آلهة أخرى لم تعرفها أنت ولا آباؤك من آلهة الشعوب القريبين منك أو البعيدين عنك من أقصاء الأرض الى أقصاها فلا ترض منه ولا تسمع له ولا تشفق عينك عليه ولا ترق له ولا تستره بل قتلا قتله : الخ)

وفي سفر التثنية أيضاً (٢٥ : ١٥ - ١٦) مانصه (حين تقرب من مدينة لتجاربها الى الصلح فإن أجابتك الى الصلح وفتحت لك فكل الشعب الموجود فيها يكون لك لاسخير ويستعبد لك . وان لم تسالمك بل عملت معك حرباً فأحصرها وإذا دفعها الرب آهلك الى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف وأما النساء والاطفال والبهائم وكل ما في المدينة كل غنيمتها فقتلها بنفسك وتأكل غنيمتها الذي أعطاك الرب آهلك . وهكذا تفعل بجميع المدن البعيدة جداً منك التي ليست من مدن هؤلاء الائم هنا . وأما مدن هؤلاء الشعوب التي يعطيك الرب آهلك نصيباً فلا تستبق منهم نسمة ما)

فانت ترى الاسلام من جهة يكتفي من الأمم والطوائف التي ينساب
على أرضها بشي من المال أقل مما كانوا يؤدون من قبل قلبه عليهم ويأن يعيشوا
في هدوء لا يعكرون منه صنو الدولة ولا يخلون بنظام السيادة العامة. ثم يرخي
لهم بعد ذلك عنان الاختيار في شؤونهم الخاصة بهم لا رقيب عليهم فيها
الا ضمايرهم. ومن جهة أخرى ينهي أفراد المؤمنين عن مقاطعة ذوي
قرباهم من المشركين ويطلبهم بحسن معاملتهم. في طبيعته ان يكل أمر
الناس في سرايرهم الى ربهم، وفي طبيعته ان يجير من لا يعتقد عقيدته،
ويحبي من لا يتبع سنته، وان كان في عمى من الجهالة؛ وخبل من الضلالة؛
أقترى انه يصيب عليه بعد ذلك ان يحتمل العلم والعلماء؛ ويضيق به حلمه عن
صنع الجميل بالفضل والفضلاء؛ ممن ينفق عمره في تقرير حقيقة؛ أو كشف
غامض أو تبين طريقة. ككلام كلاً، فمن بحث ونقب، وسبر وقر،
أو شق الأرض، أو ارتقى الى السماء، فهو في أمن من ان يعرض الاسلام
له في شيء من عمله الا أن يحدث شعباً، أو يفسد أدباً، فتند ذلك تمتد
يد الملك لرد كيد الكائد، وإصلاح الفاسد، بسماح من الدين

الاصل السادس مودة المخالفين في العقيدة (١)

المصاهرة - أباح الاسلام للمسلم أن يتزوج الكتابية نصرانية كانت
أو يهودية وجعل من حقوق الزوجة الكتابية على زوجها المسلم أن تتمتع بالبقاء
على عقيدتها، والقيام بفروض عبادتها، والذهاب الى كنيسها أو بيتها،
وهي منه بمنزلة البض من الكل، وألزم له من الظل، وصاحبه في العز

(١) هذا الاصل الاسلامي هو ضد الاصل السادس للتصراية (راجع ص ٤١٨)

والذل ، والترحال والحل ، بهجة قلبه ، وريحانة نفسه ، وأميرة بيته ، وأم بناته وبنيه ، تتصرف فيهم كما تتصرف فيه ، لم يفرق الدين في حقوق الزوجية بين الزوجة المسلمة والزوجة الكتابية . ولم يخرج الزوجة الكتابية باختلافها في العقيدة مع زوجها من حكم قوله تعالى : « وَمَنْ آيَاتِهِ أَنْ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ » فلها حظها من المودة ، ونصيبتها من الرحمة ، وهي كما هي . وهو يسكن إليها كما تسكن إليه ، وهو لباس لها كما أنها لباس له ، أين أنت من صلة المصاهرة التي تحدث بين أقارب الزوج وأقارب الزوجة وما يكون بين الفريقين من الموالاة والمناصرة على ما عهد في طبيعة البشر . وما أجلى ما يظهر من ذلك بين الأولاد وأخوانهم ؛ وذوي القربى لو الدتهم ؛ أيعيب عنك ما يستحكم من ربط الألفة بين المسلم وغير المسلم بأمثال هذا التسامح الذي لم يعهد عند من سبق ولا فيمن سبق من أهل الدين السابقين عليه ^(١) ولا يخفى على صحيح النظر أن تقرير التسامح على هذا الوجه في نشأة الدين مما يمود القلوب على الشعور بأن الدين معاملة بين العبد وربّه ؛ والعقيدة طور من أطوار القلوب ؛ يجب أن يكون أمرها بيد علام الغيوب ؛ فهو

(١) المنار - يقول بعض النصارى: إذا كان الإسلام أباح للمسلم أن يتزوج بالكتابية ليعلم البشر التأف والعاطف، مع النابن في العقيدة والتخالف ، فلماذا لم يسمح للكتابي أن يتزوج بالمسلمة لهذا الغرض ؟ والجواب أن الرجال قوامون على النساء لأنهم أقوى منهن فليس من العدل ولا من الرحمة أن يسمح لقوي يفرق دينه بينه وبين زوجته الضعيفة ويأمره ببغضها وببغض أولاده ووالديه إذا خالفوا عقيدته أن يتزوج بامرأة مخالفة . أباح الإسلام ذلك لمن يعمل بما أمر من العدل والرحمة وهو المسلم

الذي يحاسب عليها ؛ أما المخلوق فلا تطول يده اليها ؛ وغاية ما يكون من العارف بالحق أن يذبه المافل ؛ ويعلم الجامل ؛ وينصح للغاوي ؛ ويرشد الضال ؛ لا يكفر في ذلك نعمة العشير ؛ ولا يسلك به مسالك التعسير ؛ ولا يقطع أمل النصير ، ولا يخالف سنة الوفاء ؛ ولا يجتهد عن شرائع الصدق في الولاء ، ماذا ترى في الزوجة الكتابية لو كانت من أهل النظر العقلي وذهبت مذهباً يخالف مذهب زوجها ؛ أفينقص ذلك من مودته لها ؛ أو يضعف من شعور الرحمة التي أفاضها الله بينه وبينها ، فإذا كان المسلم يتعود الاحتمال بل يتعود المحبة والنصرة لمن يخلفه في عقيدته ؛ ودينه وملكته ، ويألف مخالطته وعشرته ؛ وولايته ونصرته ؛ أتراه لا يحتفل أن يرى بجواره من يعمل نظره في نظام الخليفة ليصل منه الى اكتشاف سر أو تقرير أصل في علم أو قاعدة لصناعة وان كان قد يخالف ظاهراً مما يمتد ؛ أو يميل الى رأي غير الذي يجد ؛ أفلا يسمع هذا ما يسمع المجاهر بالخلاف ؛ وهو منه على ما رأيت من الائتلاف ؟؟

لو ذهبت أعدائي في طبيعة الاسلام من عناصر وأركان كلها تؤلف مزاج الكرم ؛ وتكون حقيقة المسامحة مع العلم ؛ لأطلت على القارئ أكثر مما أطلت . ولهذا أرى من الواجب علي أن أختم القول بذكر أصل أشرت اليه ولا غنى لما نحن فيه عن ذكره

﴿ الأصل السابع للإسلام الجمع بين مصالح الدنيا والآخرة ﴾ (١)

الصحة الحياة في الاسلام مقدمة على الدين ، أو امر الحنيفية السمحة ان كانت

تختطف المبدأ إلى ربه ، وتملاً قلبه من رهبه ، وتضم أماله من رغبه ، فهي مع ذلك لا تأخذه عن كسبه ، ولا تحرمه من التمتع به ، ولا توجب عليه تقشف الزهادة ، ولا تجشمه في ترك اللذات ما فوق المادة ،

صاحب هذا الدين صلى الله عليه وسلم لم يقل « بع ما ملكك وأتبعني » ولكن قال لمن استشاره فيما يتصدق به من ماله « الثالث والثالث كثير إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس »^(١)

الرخص - فرض الصوم على المؤمنين لكن إذا خشي منه المرض أو زيادته أو زادت المشقة فيه جاز تركه بل قد يجب إذا غلب على الظن الضرر فيه . الوضوء والغسل من شروط الصحة للصلاة إلا إذا خشي منه الضرر أو عرضت مشقة في تحصيل الماء . القيام مما لا تصح الصلاة إلا به إلا إذا أصابت المصلي مشقة فيه فيسقط ويصلي قاعداً . السعي إلى الجمعة واجب إلا إذا كان وحل غزير أو مطر كثير أو ما يوجب تعباً ومشقة فيسقط . وهكذا تجد القاعدة قد عمت : « صحة الأبدان مقدمة على صحة الأديان »

فترى الدين قد راعى في أحكامه سلامة البدن كما أوجب العناية بسلامة الروح

الزينة والطيبات - أباح الإسلام لأهله التجميل بأنواع الزينة والتوسع في التمتع بالمشتميات على شريطة القصد والاعتدال وحسن النية ، والوقوف عند الحدرد

(١) المنار - يشير الكاتب إلى حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه وقد رواه البخاري ومسلم وأصحاب السنن الأربعة . كان سعد مريضاً في حجة الوداع فماده النبي صلى الله عليه وسلم وكان عازماً على الصدقة بثاني ماله وفي رواية بماله كله فسأله النبي عما ترك لولده فقال هم أغنياء . وفي رواية الجماعة أنه لم يكن له الابنت . وفي رواية أحمد والنسائي أنه أمره أولاً بان يتصدق بالمشر . والحاصل أنه ما زال يراجه حتى رضي صلى الله عليه وسلم بالثلث وحرّم الزيادة بالحديث

الشرعية، والمحافظة على صفات الرجولية، جاء في الكتاب العزيز: « يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ . قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ؟ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ تَفْصِلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ . قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ » (سورة الأعراف)

ثم عد الله النعيم والجمال والزينة من نعمه علينا التي يذكرنا بها فضله، ويهيج بها نفوسنا لذكره وشكره، كما قال: « وَالْأَنْعَامَ خَلَقْنَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ . وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بِالْفَيْهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرُؤُوفٌ رَّحِيمٌ . وَالخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ »

ثم قال: « وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لَكُمْ لَئِيَّا تَكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُ جَوَامِئَهُ حَلِيَّةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفَلَكَ مَوَازِيرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ » (سورة النحل).

الاقصاد - ووضع قانوناً للانفاق وحفظ المال في قوله: « إن المبدرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان إربه كفوراً . ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً، (سورة الإسراء)

الهي عن الفلو في الدين - وخشي على المؤمن أن يغلو في طلب الآخرة

فهلك دنياه وينسى نفسه منها فذكرنا بما قصه علينا أن الآخرة يمكن
نيلها مع التمتع بنعم الله علينا في الدنيا إذ قال : « وابتغ فيما آتاك الله الدار
الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ
الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين »

فقرى أن الإسلام لم يخس الحواس حقها ، كما أنه هيا الروح لبلوغ
كمالها ، فهو الذي جمع للإنسان أجزاء حقيقته واعتبره حيواناً ناطقاً لا
جسماً صريفاً ، ولا ملكوتياً بحتاً ، جملة من أهل الدنيا كما هو من أهل
الآخرة . استبقاه من أهل هذا العالم الجسداني ، كما دعاه إلى أن يطلب
مقامه الروحاني ، ليس يكون بذلك وبما بينه في قوله : « هو الذي يخلق
لكم ما في الأرض جميعاً » قد أطلق القيد عن قواه ، لتصل من رفاه الحياة
(مع القصد) إلى منتهاه ، والنفوس مطبوعة على التنافس قد غرر فيها حب
التسابق فيما تعتقده خيراً ، أو تجده لذيذاً أو تظنه نافعاً

وليس في التفرقة الإنسانية أن يقف بها الطالب عند حدٍّ محدود ،
أو ينتهي بها السعي إلى غاية لا مطلع للارغبة وراءها ، بل خصها الله بالمكنة
من الرقي في أطوار الكمال من جميع وجوهه إلى ما شاء الله أن ترقى
بدون حدٍّ معروف .

فإذا جمع سائق النفس ومزجها ، ومرشدها وهاديها ، بين شاحذين
شاحذ التمتع بمتاع الحياة الدنيا ، وشاحذ الرغبة في النعيم الدائم في الآخرة ،
فقد جمع لها كل ما يسو بها عن الرضاء في الدنيا بالدون ، وفي الآخرة

بعذاب الهون ، قترى كل نفس تمضي مع استعدادها ، بشهامة فؤادها ،
 مضاه الزميع ^(١) لا تخشى العثرة بالوعيد ، ولا تقعد عن مطلبها قعدة
 الرعد يند ^(٢) فتطلب منافمها ، من هذا الكون الذي وُجدت فيه ووجد
 لها ، فتسير في مناكب الارض ، ولا تكتفي عن السكل بالبعض ، وتبحث
 في تربتها ، ولا يقف بها ظاهرها عن باطنها ؛ ولا يحجبها ظهرها ؛ عن مديديها
 الى ما في جوفها ، ولا تجد ، ايصدُّها عن النظر في الهواء ، والبحث في
 الماء ، والاهتداء بنجوم السماء ، بعد معرفة مواقعها ، وحرركاتها في مداراتها ،
 واستقامتها وانحرافها ، وظهورها وخنوسها ، وبالجملة فكل مستعدٍ لوجه
 من وجوه النظر ، او الولوج في باب من ابواب العلم ، ينطلق الى حيث
 يبلغ به استعداده إما للنجاة من ضرورة ، وإما لاستتمام منفعة او استكمال
 لذة ، لا يجد من نواهي الدين ما يصدّه عن مطلب ، ولا ما يكف يده
 عن تناول رغبة ، أين هذا من ذلك الذي لا يرى الخلاص الا في مجافاة
 هذا العالم ولدائذه ويجد ان الغنى والثروة من الحجب التي لا تحرق تحول
 بينه وبين ملكوت السموات

كيف يتسنى للمسلم ان يشكر الله حق شكره ، اذا لم يضع العالم
 بأسره تحت نظر فكره ، لينفذ من ظاهره الى سره ، ويقف على قوائمه
 وشرائمه ، ويستخدم كل ما يصلح لخدمته في توفير منافمه ، كيف يشكر
 الله اذا توانى في ذلك وقد ارشده الله في كتابه وبسنة نبيه الى أن عالمه إنما خلق
 لأجله ، وقد وعده الله تحت تصرف عقله ، انظر الى لطف الاشارة في الاية

(١) هو الخنزير القوي العزيمة يرمع على الأمر فيمضي فيه ولا يتفني والحيد الرأي المقدم

(٢) الرعد يد الجبان الكثير الارتعاد

المتقدمة « قل من حرم زينة الله » الخ حيث قال : « كذلك تفصل الآيات لقوم يعلمون » فأهل العلم هم الذين يعرفون مقدار نعم الله تعالى فيما يرفه به معيشتهم ، ويجعل به هياتهم ، ويجلي به زينتهم ؛

المسلمون مسوقون بنابل من دينهم الى طلب ما يكسبهم الرفعة والسؤدد ؛ والفزة والمجد ؛ ولا يرضيهم من ذلك بما دون الغاية ؛ ولا يتوفر شيء من وسائل ذلك الا بالعلم ؛ فهم محفوزون أشد الحفز الى طلب العلم وتلمسه في كل مكان ، وتلقيه من أية شفة وأي لسان ، فاذا لاقاه المالم في أي سبيل ، أو عشروا به في أي جيل ، أو ظهر لهم من أي قبيل ، هشوا له وبشوا ، ونصبوا اليه وكمشوا^(١) ، رشدوا به أو اصرهم ، وعقدوا عليه خناصرهم ، ولا يباليون ما تكون عقيدته ، اذا نفتهم حكمته ، « الحكمة ضالة المؤمن فحيث وجدها فهو أحق بها »^(٢) ألم يأتيهم عن ربهم : « يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ » ألم يسموا في وصفهم قوله : « الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه » ذلك شأن المسلم مع العلم اذا كان مسلماً حقاً . وذلك ما تنجر إليه طبيعة دينه . وحديث اطلبوا العلم ولو بالصين^(٣) ان كان في سنده

(١) لعل نصبوا من نصب السير وهو ان يسير طول يومه سيراً لينا . وكمش الرجل كان سريعاً ماضياً . وكمش كمشته شجع واسرع (٣) النار - حديث رواه

الترمذي عن أبي هريرة ، ورواه غيره بألفاظ أخرى والمعنى واحد . ومنه رواية موقوفة على ابن عمر رضي الله عنهما « خذ الحكمة ولا يضرك من أي وعاء خرجت » وفي

رواية عن علي كرم الله وجهه « الحكمة ضالة المؤمن فخذ الحكمة ولو من أهل النفاق

(٣) رواه ابن عدي في الكامل والبيهقي في شعب الأيمان والمدخل وابن عبد البر في العلم والخطيب في الرحلة والديلمي في مسند الفردوس وغيرهم وله طرق كثيرة يقوي بعضها بعضها

لفظه الى النبي صلى الله عليه وسلم مقال فسنده معناه متواتر فانه سند القرآن نفسه
 فان الله يفضل العلم وأهل العلم بدون قيد ولا تخصيص ، فالمسلم مطالب بطلب
 العلم ولو في الصين ولم يكن في الصين مسلم على عهد النبي صلى الله عليه وسلم
 لا شيء ينقلب عند النفس الانسانية لذته بنفسه وان كان في أول أمره مطلوباً
 لغيره مثل العلم . تطلب العلم أولاً لحاجتك اليه في تقويم معيشة . أو ترفيه
 حال . أو دفاع عن نفس وملة . ثم لا تلبث اذا أوغلت فيه أن تجد اللذة في
 العلم نفسه فتصير اللذة بتحصيله والوصول الى دقائقه غاية تقصد بنفسها .
 وتضمحل فيها كل غاية سواها . وعلة ذلك ظاهرة فان العلم مسرح نظري
 العقل والمقل قوة من أفضل القوى الانسانية بل هي أفضلها على الحقيقة
 قد وضع لها العليم الحكيم لذة كما منح لكل قوة سواها نمياً ولذة . ولست
 في حاجة الى تمديد لذة البصر أو السمع أو الشم أو الذوق أو اللمس فالحيوان
 يمر فها بله الانسان . وكلما عظم اختصاص القوة بالنوع عظمت لذته باستعمالها
 فيما وجهت له فيمكنك ان تستنتج من ذلك ان لا شيء عند الانسان الذم من
 كشف المجهول . وإحراز المعقول . وقد سمع الاسلام للمسلم ان يتمتع في
 هذه الحياة الدنيا بما يلذ له مع القصد والاعتدال . أفلا يكون من لذائذه
 ومتممات نميمه أن يسبح في مملكة العلم ليمتع عقله ، كما يسبح في بسيط
 الأرض ليكسب رزقه ويقيم أهله ، على ان العلم كان من ضروريات معيشة
 المسلم أو حاجياتها كما ذكرنا فاذا طفق يستنبط ماء للضرورة ، ويستجلي
 سناؤه للحاجة ، فلا يلبث أن يصير هو حاجة نفسه ، وشاغله عن حاجات
 حسه ، حتى يدخل فيه في رسمه ، كما وقع لكثير من المسلمين . قال امام جليل
 من أئمتهم « طلبنا العلم لغير الله فأبى أن يكون الا لله » (له بقية)